الطبري المفسر

د. عمر الأسعد

مقدمة :

يقدم

هذا البحث خلاصة وافية عن الطبري المفسر ، ويعرّف بمنهجه في التفسير من طريق تناول بعض القضايا الرئيسية الهامة في التفسير ، لترتسم بهذا التناول الخطوط العريضة لذاك المنهج . وقد حاولت رسم ملامح الطبري المفسر بالكلام على الطبري بين التفسير النقلي والعقلي ، ثم استشهاده بالحديث : وبيان درجته وإسناده وطرق روايته ، والاستشهاد بالشعر للربط بين المدلولات اللغوية في القرآن وفي كلام العرب . واستخدام اللغة وسيلة لفهم المعاني القرآنية والقراءات وموقف المفسر منها ، والمسائل الفقهية وآرائه الاجتهادية ، والمسائل الكلامية وموقفه من آراء الفرق كالمعتزلة والقدرية وغيرهما ، والإسرائيليات في كتابه ، لِمَ أوردها وكيف نوّه بها؟ .

يعدّ الإمام محمد بن جرير الطبري (١) (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) شيخ المفسرين، ويعد تفسيره «جامع البيان في تفسير القرآن» إمام التفاسير ومقدّمها، ذلك أنّ هذا التفسير ـ فضلا عن أوليته وشموله ـ انطوى على صفات وخصائص جعلته حقيقا أن ينزل هذه المنزلة بين التفاسير(٢)، وأن صاحبه جمع من العلوم والمعارف وخلّف من الآثار ما أهّله لأن يتبوأ هذه المكانة الرفيعة بين المفسرين(٣)، وأن يكون من جاء منهم بعده عالة على تفسيره ينهلون من منهله ويغترفون من معينه.

ولست في معرض بسط منهج الطبري في التفسير بسطا مفصلا، فذلك قد تناوله كثير من الدراسات والبحوث وصنفت فيه المراجع والمؤلفات بل كفانا الشيخ الطبري نفسه مؤونته إذ ذكر في مقدمة تفسيره طريقته في التفسير ومنهجه فيه، لذا رأيت أن أعرض لبعض القضايا الهامة في التفسير وأقف عليها عند الطبري وعلى طريقة تناولها، ولعلنا من خلال النظر إلى مجموعة هذه القضايا نكون قادرين على تكوين فكرة عامة عن الطبري المفسر، وتكون نظرتنا إليه شاملة متكاملة.

ولكني أقدم بين يدي ذلك بكلمة حول نشأة علم التفسير وصلته بالحديث النبوي وعلومه، فلقد «ظل التفسير قائما على الرواية حتى نهاية عصر التابعين. وكان المحدثون هم أصحاب الشأن فيه، فلما دوّنوا الحديث جعلوا التفسير فرعا خاصا من فروعه، واستقل التفسير بعد ذلك وأصبح علما قائما بذاته، ووجد من المفسرين من تناول القرآن كله بالتفسير حسب ترتيبه في المصحف، من هؤلاء ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وأبو بكر المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ وغيرهم»(٤)

يصنف الطبري ما أنزله تعالى من الوحي على نبيه ثلاثة أصناف : (٥).

(أ) فممّا أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله ـ والتأويل في هذا الموضع بمعنى التفسير ـ إلا ببيانه عليه السلام، يؤيد ذلك ما خاطبه به بقوله «وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون»(٦)، وقوله «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»(٧) ويقع بيانه عليه السلام في تأويل ما في التنزيل من وجوه الأمر والنهي والندب والإرشاد والحقوق والحدود ومبالغ الفرائض. . . » وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له بتأويله بنصٍّ

منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله(٨).

(ب) ومما أنزله ما لا يعلم تأويله إلا الله، مثل الخبر عن أوقات آتية كوقت قيام الساعة والنفخ في الصور ونزول عيسى عليه السلام، يخاطب الله تعالى نبيه في ذلك بقوله «يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما عِلْمُها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ثَقُلَتْ في السماوات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة يسألونك كأنك حفيٌّ عنها قل إنما عِلْمُها عند الله ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون»(٩). فهذا وأمثاله لا يعرف أحد تأويله إلا الخبر بأشراطه لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه، كالذي أخبر به الرسول أصحابه إذ ذكر الدّجال فقال «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدي فالله خليفتي عليكم»(١٠).

(جـ) ومما أنزله عليه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وعلم بدلالات ألفاظ هذا اللسان وأسلوب التعبير فيه، وما أَلِفَتْه العرب من وجوه استعمالات الألفاظ والتراكيب، وما درجت عليه من التعابير المجازية والاستعارية، تتوسّل بها للتعبير عن المراد بعمق التأثير وقوة التعبير، وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»(١١) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فِعْلُه مما فعله منفعة، وإن جَهِلَ المعاني التي جعلها الله إفساداً والمعاني التي جعلها الله إصلاحا. فالذي يعلمه ذو اللسان الذي بلسانه نزل القرآن من تأويل القرآن، هو ما وصفتُ من معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون الواجب من أحكامها وصفاتها التي خصّ الله بعلمها نبيه صلى الله عليه وسلم»(١٢).

ولقد بنى الطبري منهجه في التفسير على هذه الأسس، فجاء تفسيره مما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل عن الصحابة والتابعين، مع ترجيح بعض الروايات أو تفضيلها أو تضعيفها. وقد تجاوز عمل الطبري المفسر ترجيح الروايات إلى ترجيح المعاني وتقليبها على الوجوه اللغوية المحتملة، وإبداء الرأي، يقول الأستاذ أمين الخولي «وشخصية ابن جرير الأدبية والعلمية تجعل كتابه مرجعا غير قليل الأهمية في الصنف الثاني من التفسير، أي تفسير الدراية، فترجيحاته للمعاني المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة فوق ما جمع كتابه من روايات أثرية»(١٣).

والأمثلة على ترجيح الروايات والمعاني كثيرة في تفسيره لا تحصى، منها ما جاء في تأويل قوله تعالى «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم»(١٤) حيث ذكر في معنى الدخان قولين(١٥): أولهما أن ذلك حين دعا رسول الله ﷺ قريش ربه تعالى أن يأخذهم بسنين كسني يوسف فأُخذوا بالمجاعة، وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع من الظلمة كهيئة الدخان وبهذا الرأي أخذ ابن مسعود، وثانيهما أنه علامة من علامات القيامة يصيب المؤمن منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره! وأفاض في ذكر الأحاديث المروية في كلا المعنيين ذاكراً رواتها وأسانيدها. وذكر لأحد الأحاديث التي ساقها في تعضيد الرأي الثاني هذه السلسلة: «حدثني عصام بن روّاد بن الجراح قال حدثني أبي قال حدثنا سفيان بن سعيد الثوري قال حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعيّ بن حراش قال سمعت حذيفة بن اليمان يقول قال رسول الله ﷺ. . .»(١٦) ثم عقب على الكلام كله بقوله «وأولى القولين بالصواب في ذلك ما روي عن ابن مسعود من أن الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يرتقبه هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم على ما وصفه ابن مسعود من ذلك، إن لم يكن خبر حذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول الله ﷺ صحيحا، وإن كان صحيحا فرسول الله ﷺ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصحّ عنه قول. وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روادا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. فقلت له: فقرأته عليه؟ فقال: لا. فقلت له: فقرىء عليه وأنت حاضر فأقرّ به؟ فقال لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ قال جاءني به قوم فعرضوه عليّ وقالوا لي: اسمَعْه منّا، فقرؤوه عليّ ثم ذهبوا فحدّثوا به عنيّ، أو كما قال. فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة وإنما قلت: القول الذي قاله عبد الله بن مسعود هو أولى بتأويل الآية، لأن الله جل ثناؤه توعّد بالدخان مشركي قريش وأن قوله لنبيه محمد ﷺ «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين «في سياق خطاب الله كفار قريش وتقريعه إياهم بشركهم بقوله» لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين، بل هم في شك يلعبون»(١٧) ثم أتبع ذلك قوله لنبيه عليه السلام «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» أمراً منه له بالصبر إلى أن يأتيهم بأسه، وتهديدا للمشركين. فهو بأن يكون ـ إذ كان وعيدا لهم ـ قد أحلّه بهم أشبه من أن يكون أخره عنهم لغيرهم»(١٨) محاكمة عقلية للنصوص، ومتابعة

للرواية، وتقصٍّ علمي للعلة الخفية فيها.

على أن الطبري عقد في مقدمة تفسيره فصلا سمّاه «ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي»⁽١٩⁾ يدرك الناظر فيه أن المصنف إنما يشدد على تجنب التفسير بالرأي المتحيز إلى فئة، أو المُجاري هوًى، أو المتعارض مع أصل من أصول العقيدة والشريعة ولو كان ذلك التفسير صوابا، لأن الإصابة فيه ليست إصابة موقن أنه محق. وإنما هي إصابة خارصٍ وظانّ. والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم، وهو عز وجل يقول «قل إنما حرّم رَبِّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»⁽٢٠⁾.

وفي معرض الاستشهاد بالحديث وعناية المصنف به، فقد مضى مَثَلٌ على عنايته بالأسانيد وكشف عللها والتحقق من صحتها.

ولكن الطبري وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين ـ بل أوقع من جاء بعده منهم لأنهم نقلوا عنه ـ برواية الأحاديث الصحيحة والضعيفة بأنواعها المختلفة⁽٢١⁾. ولئن درج المفسرون أحيانا على التنبيه على الحديث الضعيف ولَفْت النظر إلى ضعفه أو فساد إسناده، فإنهم أغفلوا ذلك أحيانا كثيرة، فأوقعوا القارىء في لَبْسٍ من الأخذ بالحديث أو تركه، ما دام غير قادر على تمييزه ومعرفة صحته من ضعفه.

فممّا رواه الطبري ونقله عنه غيره الحديث الذي ساقه في تأويل قوله تعالى «واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون»⁽٢٢⁾ وهو «حدثني نجيح بن إبراهيم قال حدثنا علي بن حكيم قال حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء، قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: العدل الفدية»⁽٢٣⁾. فهذا الحديث لم يورده غير الطبري، ونقله عنه ابن كثير والسيوطي⁽٢٤⁾، ولم يشر الطبري بشيء إلى ضعفه إلا بهذه الإشارة المرجّحة عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن ـ الملائي ـ عليه الثناء». ومعلوم أن الحديث الذي يذكر فيه رجل مبهم هو حديث منقطع⁽٢٥⁾.

على أن الطبري نقل كثيرا من الأحاديث الصحيحة، واعتمد عليها في بيان المراد من الآية التي يفسرها، مثال ذلك الحديث الذي أورده في تأويل قوله عزّ وجل «الذين آمنوا ولم يلبسوا

إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[٢٦] قال: حدثنا ابن وكيع قال حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليس بذلك! ألم تسمعوا قول لقمان: «إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيم»[٢٧][٢٨].

زخر تفسير الطبري بالشواهد الشعرية يوردها للاستشهاد على دلالة بعض الألفاظ أو لإثبات قاعدة نحوية. لذا فإن كثيرا من الأشعار الواردة في تفسير الطبري ـ وفي غيره من التفاسير ـ هي في الحقيقة شواهد نحوية مودعة بطون كتب النحو. ولما كانت كتب التفسير يأخذ اللاحق منها من السابق، فقد غدت الشواهد الشعرية فيها متقاربة جدا حتى كدتُ أقول إنه تحصّل لدينا ما يمكن أن نسميه «شواهد التفسير» على نسق شواهد النحو والصرف[٢٩].

والاستشهاد بالشعر في تفسير القرآن أمر مأخوذ به عند جمهور المفسرين. فما دام أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فبديهي أنه جرى في الاستعمال مجرى ما كانت العرب تستخدم به لغتها، وما أَلِفَتْه من دلالات ألفاظها وتراكيبها، ونضرب لذلك مثلا تفسير قوله تعالى «وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين»[٣٠] قول الزمخشري: «وفي موسى» عطف على.. قوله «وتركنا فيها آية» على معنى: وجعلنا في موسى آية كقوله:

لما حططتُ الرّحل عنها واردا علفتُها تبناً وماءً باردا[٣١]

يعني: علفتها تبنا وسقيتها ماء باردا، ونحوه:

وزجّجن الحواجب والعيونا: أي زجّجن الحواجب وكحلن العيون.

أما الطبري فنكتفي منه بإيراد هذه الشواهد الشعرية، ساقها في موضعين:

الأول عند الكلام على قوله تعالى «وحناناً من لدنّا وزكاةً وكان تقيا»[٣٢]:

ـ حنانك وحنانيك لغتان شاهداهما قول طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بض الشرّ أهون من بعض

وقول امرىء القيس:

ويمنحها بنو شمجي بن جرم

معيزهمُ حنانك ذا الحنان

ـ حنانَيْك لغة وليست بتثنية، كقول الشاعر:

ضرباً هذا ذَيْك وطعناً وَخْضا

تحنّن فلان على فلان إذا وصف بالتعطّف عليه والرقّة به والرحمة له كما قال الشاعر:

تحنّن عليّ هداك المليك

فإن لكلّ مقامٍ مقالا

ـ يقال لزوجة الرجل حنّته لتحنّنه عليها وتعطّفه كما قال الراجز:

وليلة ذات دجى سَرَيْتُ

ولم تَضِرْني حنّةٌ وبَيْتُ

والموضع الثاني عند الكلام على قوله تعالى «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»(٣٣) أي هين عليه، ويستشهد على هذا المعنى بقول ذي الرمّة:

أخي قفرات دبّبَتْ في عظامه

شفافات أعجاز الكرى فهو أخضع

بمعنى خاضع، ويقول الآخر:

لعمرك إن الزبرقان لباذل

لمعروفه عند السنين وأفضل

كريم له عن كل ذمٍّ تأخّرٌ

وفي كلّ أسباب المكارم أوّل

بمعنى باذل وفاضل، وقول معن:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنيّة أول

بمعنى: وإني لوجل، وقول الآخر:

تمنّى مُرَيْءُ القيس موتي و إن أَمُــــتْ

فتلك سبيــلٌ لستُ فيـهـا بأوحـد

بمعنى : لست فيها بواحد ، وقول الفرزدق :

إن الذي ســمك الســمــاء بنى لنــا

بيتاً دعائــمــه أعـــزّ وأطـول

أي دعائمه عزيزة طويلة . ومن هذا الباب قولهم في الأذان : الله أكبر بمعنى : الله كبير.

سأدير الكلام الآن على لغة الطبري في تفسيره ، وأضمنه مسائل : الأولى منها نظرية ، تتصل بالقول بأن من القرآن ما ليس بلسان العرب ، وموقف الطبري من ذلك .

والثانية تتناول موقف الطبري من استخدام المدلول اللغوي كما ورد في كلام العرب وأشعارهم ، وموقفه حين تعارض هذا المدلول اللغوي مع ما ورد من أقوال الصحابة في التأويل والتفسير.

والثالثة تتعلق بعنايته بالإعراب والنحو ، لما لذلك من أثر مباشر في تأويل آي القرآن وفهمها .

(أ)تناول الطبري في مقدمة تفسيره قضية طريفة ، فبرهن على فساد قول من زعم أن من القرآن ما ليس بلسان العرب ، وبرهن على أن الله أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وذلك قوله «إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»(٣٤) ومن عنوان الفصل الذي عالج فيه الطبري هذه القضية نستطيع أن نستشف رأيه فيها والنتيجة التي توصل فيها إليها ، فقد اقترح هذا العنوان «القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم»(٣٥) . وقد صاغ القضية بصيغة سؤال مؤداه : كيف نوفّق بين حقيقة مخاطبة الله تعالى خلقه بما يفهمونه و إرسال الرسالة إليهم باللسان الذي يفقهونه ، وبين ما تواتر في روايات التفسير:

ـ من أن «الكفلين» في قوله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلين من رحمته»(٣٦) معناه ضعفان من الأجر بلغة الحبشة .

- وأن «أوّبي» في قوله «ولقد آتينا داود منّا فضلاً يا جبال أوّبي معه»(٣٧) معناه سبحي بلسان الحبشة.

- وأنّ القسورة في قوله «كأنهم حمر مستنفرة، فرّت من قسورة»(٣٨) هو بالعربية الأسد، وبالفارسية شار، وبالنبطية أريا، وبالحبشية قسورة،

- وأنّ «ناشئة الليل» في قوله «إنّ ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلا»(٣٩) معناه بلسان الحبشة أن الرجل إذا قام من الليل قالوا: نشأ، وغير ذلك مما يكثر إحصاؤه في القرآن؟

وجواب الطبري عن هذا السؤال هو أنّ أحدا لم يقل إنّ هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاما قبل نزول القرآن «وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا، ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها، كما قد وجدنا اتفاق كثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم والدينار والدّواة والقلم والقرطاس... مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى؟»(٤٠) فالقضية إذن هي وجود ألفاظ مشتركة بين اللغات لا يترتب بموجبها أن تكون الألفاظ ذات المعنى المحدد في لغة معينة، منتسبةً إلى تلك اللغة وحدها ولا تحمل في لغة أخرى المعنى نفسه «لأن من نسب شيئا من ذلك إلى ما نسبه إليه لم يَنْفِ بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيا، ولا من قال منهم: هو عربيّ، نفى ذلك أن يكون مستحقاً النسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها»(٤١).

(ب) للدلالات اللغوية أهمية بالغة عند الطبري كما وردت عن العرب في نثرهم وشعرهم. ومعاني كتاب الله يلزم أن تكون موافقة لمعاني كلام العرب، وظاهرها لظاهر كلامها ملائما. فهو حين يذكر لفظا يحتاج إلى بيان يذكر معانيه المحتملة كلها، يوردها بأسانيدها وشواهدها، يورد مثلا في معنى «الخير» في قوله تعالى «وإنه لحب الخير لشديد»(٤٢): وإن الإنسان لحب المال لشديد، ويورد قول آخرين: معناه: وإنه لحب الخير لقوي، أو يكون معنى الخير الدنيا، بدليل «إن ترك خيراً الوصية»(٤٢) قال ذلك ابن زيد، فسئل: إن ترك خيرا المال؟ قال: نعم وأي شيء هو إلا المال؟(٤٤).

ولا يكتفي في أحيان كثيرة بإيراد المعاني اللغوية والسكوت عنها، بل يفاضل بينها

ويختار أرجحها عنده، فقد تعودنا أن نقرأ لازمته في المفاضلة مبثوثة في أنحاء تفسيره: «وأولى القولين ـ أو الأقوال ـ في ذلك عندي بالصواب كذا» فمثلا في سورة العاديات التي استشهدنا بآية منها يذكر في قوله تعالى «والعاديات ضبحا»(٤٥) بضع عشرة رواية في معنى العاديات: أهي الخيل تعدو حتى تضبح أم الإبل، ثم يقول «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني بالعاديات الخيل، وذلك أن الإبل لا تضبح وإنما تضبح الخيل» ويدل على ذلك بقول علي رضي الله عنه «الضّبح من الخيل الحمحمة ومن الإبل النَّفَس»(٤٦).

ولكن إذا تعارض المدلول اللغوي مع ما ورد عن الصحابة والتابعين أو لم يعضّد بتأييدهم فالطبري يرجح أقوال هؤلاء، فمذهبه تقديم المنقول على غيره، ففي سياق تأويل قوله تعالى «إن الساعة آتية أكاد أُخفيها»(٤٧) يذكر أن المعنى أكاد أخفيها من نفسي، أو أكاد أظهرها، لأن للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار والآخر الكتمان. ثم يميل إلى الأخذ بمعنى الستر فيقول «وأما وجه صحة القول في ذلك فهو أن الله تعالى ذكره خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم، فلما كان معروفا في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئا هو له مُسِرّ: قد كدتُ أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته ـ خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلام بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم. وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا، وإنما اخترنا هذا القول على غيره من الأقوال، لموافقة أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين، إذ كنا لا نستجيز الخلاف عليهم فيما استفاض القول به منهم وجاء عنهم مجيئا يقطع العذر»(٤٨).

(ج) أما عنايته بالنحو والإعراب والتراكيب اللغوية فيوثقها وقوفه عند إعراب كثير من الألفاظ وذِكْر مواطن التمكين في الكلام كالاعتراض والتقديم والتأخير وما إلى ذلك، مع أن ذلك ليس ممّا يوسم به تفسيره أو يعرف به كما عرف تفسير أبي حيان مثلا: البحر المحيط. ونمثّل لذلك بسورة العاديات في الكلام على قوله تعالى «إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد»(٤٩)، فقد لفت نظره في التركيب اللغوي الحذف والتقديم والتأخير في الآية الأخيرة، وعلّله بحذف ما جرى ذكره من قبل تجنباً للتكرار، وبالمحافظة على الفاصلة القرآنية، يقول في ذلك: «وقال بعض نحويّي الكوفة:

كان موضع «الحب» أن يكون بعد «شديد» وأن يضاف «شديد» إليه، فيكون الكلام: وإنه لشديدحبّ الخير. فلما تقدم الحب في الكلام قيل: شديد، وحذف من آخره لما جرى ذِكْره في أوله، ولرؤوس الآيات. قال: ومثله: في سورة إبراهيم «كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف»(٥٠) والعصوف لا يكون لليوم إنما يكون للريح، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طُرحت من آخره، كأنه قال: في يومٍ عاصفِ الريح»(٥١) ثم أشار إلى الاعتراض بالآية الثانية بين الأولى والثالثة بقوله «وتأويلَ الكلام: إن الإنسان لربّه لكنود، وإنه لحب الخير لشديد، وإن الله على ذلك من أمره لشاهد، ولكن قوله «وإنه على ذلك لشهيد» قُدِّم ومعناه التأخير، فجعل معترضا بين قوله «إن الإنسان لربه لكنود» وبين قوله «وإنه لحب الخير لشديد»(٥٢).

عني الطبري عناية خاصة بالقراءات، وبلغ من عنايته بها أن صنّف فيها كتابا ذكره ياقوت في ترجمته للطبري بقوله «وله في القراءات كتاب جليل كبير رأيته في ثماني عشرة مجلدة، إلا أنه كان بخطوط كبار، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ، وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور»(٥٣). ولكن التصنيف في هذا العلم والاعتناء به لم يضعه في موضع التصدي للإقراء والانتصاب له، فهو لم يقرأ عليه إلا آحاد من الناس(٥٤).

ورغم أن المنهج الذي اختطه لنفسه في تفسيره هو البيان عن تأويل آي القرآن دون وجوه قراءتها، لكنه كان يقف عند هذه الوجوه يقلبها، إذا كان يترتب على اختلاف القراءات اختلاف وجوه التفسير:

(أ) فيقبل القراءات المشهورة التي قرأ بها القراء وأجمعت عليها الأمة، وانسجم معها معنى الآية، مثل ذلك قوله في تأويل قوله تعالى «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون»(٥٥): «اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأ بعضهم » واعدنا «بمعنى أن الله تعالى واعد موسى ملاقاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدة من الله لموسى ومن موسى لربه، وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة » واعدنا على وعدنا أن قالوا: كل إيعاد كان بين اثنين للالتقاء أو الاجتماع، فكل واحد منهما مواعد صاحبه ذلك، فلذلك زعموا أنه وجب أن يُقضى لقراءة من قرأ «واعدنا» بالاختيار على قراءة من قرأ «وعدنا»

بمعنى أن الله الواعد موسى والمنفرد بالوعد دونه . وكان من حجتهم في اختيارهم ذلك أن قالوا : إنما تكون المواعدة بين البشر، فأما الله جل ثناؤه فإنه المنفرد بالوعد والوعيد في كل خير وشر، قالوا : وبذلك جاء التنزيل في القرآن كله، فقال جل ثناؤه : «إن الله وعدكم وعد الحق»(٥٦)، وقال : «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم»(٥٧). قالوا : فكذلك الواجب أن يكون هو المنفرد بالوعد في قوله «وإذ وعدنا موسى» والصواب عندنا في ذلك من القول أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمة وقرأت بهما القراء، وليس في القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى، وإن كان في إحداها زيادة معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة، فأما جهة المفهوم بهما فهما متفقتان»(٥٨).

ومثال آخر على ذلك قوله في تأويل قوله تعالى «وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألاّ تتخذوا من دوني وكيلا»(٥٩): «وقوله : «ألاّ تتّخذوا من دوني وكيلا» اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والكوفة «ألاّ تتّخذوا» بالتاء، بمعنى : وآتينا موسى الكتاب بأن لا تتّخذوا يا بني إسرائيل، من دوني وكيلا . وقرأ ذلك بعض قراء البصرة «ألا يتّخذوا» بالياء على الخبر عن بني إسرائيل بمعنى : وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا يتخذ بنو إسرائيل من دوني وكيلا . وهما قراءتان صحيحتا المعنى متفقتان غير مختلفتين، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ الصواب . غير أني أوثر القراءة بالتاء لأنها أشهر في القراءة وأشد استفاضة فيهم من القراءة بالياء»(٦٠).

أرأيت كيف يعرض أبو جعفر القراءة والأدلة التي تقوّيها، ثم يعرض القراءة الأخرى كذلك بأدلتها ثم يرجّح إحداهما أو يساوي بينهما، أو يبرز ما تمتاز به الواحدة عن الأخرى بمنطق العالم المتمكن؟ .

(ب) ويردّ قراءة مَنْ لا يعدّهم حجة أو من تخالف قراءتهم قراءة الحجة، ويقيس ما يختاره ويصوّبه على كلام العرب، ويطبقه على قواعد الصرف وبناء الكلمة، يقول مثلا في تفسير قوله تعالى «قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض»(٦١) ما نصه : «اختلفت القراء في قراءة قوله «إن يأجوج ومأجوج» فقرأت القراء من أهل الحجاز والعراق وغيرهم» إن ياجوج وماجوج» بغير همز على : فاعول، من يَجَجْتُ ومَجَجْتُ، وجعلوا الألفين فيهما زائدتين، غير عاصم بن أبي النجود والأعرج فإنه ذُكر أنهما قرآ ذلك بالهمز

فيهما جميعا، وجعلا الهمز من أصل الكلام، وكأنهما جعلا يأجوج: يفعول، من أَجَجْتُ ومأجوج: مفعول. والقراءة التي هي القراءة الصحيحة عندنا أن «ياجوج وماجوج» بألف بغير همز لإجماع الحجة من القراء عليه، وأنه الكلام المعروف على ألسن العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لو أن ياجوج وماجوج معا
وعاد عادوا واستحاشوا تبعا»(٦٢)

ويقول فيما جاء في قراءة «أُخفيها» من قوله تعالى «إن الساعة آتية أكاد أخفيها»(٦٣) بالفتح والضم «والذي ذُكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك بفتح الألف قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا»(٦٤).

الطبري فقيه مجتهد وصاحب مذهب فقهي له أصوله وقواعده وإن لم يُكتب له الذيوع والانتشار وكثرة الأتباع. ونحن نرى في ثنايا تفسيره آراءه يستخلصها بعد إيراد الأقوال المختلفة وموازنتها وفحص أدلتها. فمن هذه الآراء مثلاً ما ذكره في تأويل قوله تعالى «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً»(٦٥) من وجوه الاختلاف كما يلي:(٦٦)

- قال بعضهم: تأويله: إن الذين آمنوا بموسى ثم كفروا به ثم آمنوا بعيسى ثم كفروا به ثم ازدادوا كفراً بمحمد لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا.

- وقال آخرون: بل عنى بذلك أهل النفاق أنهم آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ازدادوا كفراً بموتهم على الكفر.

- وقال آخرون: بل هم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، أتوا ذنوبا في كفرهم فتابوا فلم تقبل منهم التوبة فيها مع إقامتهم على كفرهم.

وما أورده من الأحاديث والروايات المؤيدة لكل فريق بأسانيدها، وقوله بعد ذلك: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقّروا بحكم التوراة ثم كذّبوا بخلافهم إياه، ثم أقرّ من أقرّ منهم بعيسى والإنجيل ثم كذّب به بخلافه إياه، ثم كذّب بمحمد ﷺ والفرقان، فازداد بتكذيبه به كفراً على كفره. وإنما قلنا: ذلك

أولى بالصواب في تأويل هذه الآية ، لأنّ الآية قبلهـا في قصص أهل الكتابين ، أعني قوله : «يا أيها الذين آمَنوا آمِنـوا بالله ورسوله»(٦٧) ولا دلالة تدلّ على أن قـوله «إن الذين آمنـوا ثم كفروا» منقطعٌ معناه مـن معنى مـا قبله ، فإلحاقـه بما قبله أولى حتـى تأتي دلالـة دالّة على انقطاعه منه»(٦٨).

واستطرد بعد ذلك إلى القـول : «وقد ذهب قوم إلى أن المرتد يستتاب ثلاثـاً انتزاعاً منهم بهذه الآية(٦٩) ، وخالفهم على ذلك آخرون فقـالوا : يستتاب كلما ارتد»(٧٠). ثم قال : «وفي قيام الحجة بأن المرتد يستتاب المرة الأولى الدليل الواضح على أن حُكْمَ كل مرة ارتدّ فيها عن الإسلام حُكْـمُ المرة الأولى في أنّ توبته مقبـولة ، وأنّ إسلامُه حقـن له دمه ، لأن العلـّة التي حقنت دمـه في المرة الأولى إسلامـه ، فغير جائز أن توجـد العلّة التي مـن أجلها كـان دمه محقوناً في الحالة الأولى ، ثم يكون دمه مباحا مع وجودها ، إلاّ أن يُفرّق بين حُكْم المرة الأولى وسـائر المرات غيرهـا ما يجب التسليم لـه مـن أصـل محكـم فيخرج مـن حكـم القيـاس حينئذ»(٧١).

سلـك الطبري في تفسيره مسلك الـرد على أصحاب الفـرق بلا تـردّدٍ ولا توانٍ ، وأخـذ بمنهـج السلف ، فهـو في ذلك نصير لأهـل السنـّة في الاعتقاد . وتجيء ردوده في معـرض الكلام على الآيات التـي اتخذت منها تلك الفرق مجالا للقـول وميدانا للجدل ، ففـي قوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ويغفـر ما دون ذلك لمن يشاء»(٧٢) يقول : «وذُكر أن هذه الآية نزلت في أقـوام ارتابوا في أمر المشركين حين نزلت «يا عبادي الـذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا»(٧٣) وساق لذلك الحديث : «لمّا نزلت : يا عبادي الذين أسرفـوا على أنفسهم» الآية ، قام رجل فقال : والشرك يـا نبيّ الله؟ فكره ذلك النبي صلى الله عليـه وسلم فقـال : «إن الله لا يغفر أن يُشرك بـه «الآية ، بـروايات وألفـاظ مختلفة ، ثم قال : «وقـد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففـي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شِرْكاً بالله»(٧٤).

وفي قوله تعالى «أَوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون»(٧٥) يقول في الكلام على آخر الآيـة : «يقول تعالى ذكـره : كما خذلتُ هـذا الكافـر الذي يجادلكم أيها المؤمنـون بالله

ورسوله في أكل ما حرّمتُ عليكم من المطاعم عن الحق، فزينتُ لـه سوء عمله فرآه حسناً ليستحقّ به مـا أعددتُ له من أليم العقاب ــ كذلك زينتُ لغيره ممّن كان على مثـل ما هو عليه من الكفر بالله وآيـاته ما كانوا يعملون من معاصي الله ليستوجبوا بـذلك من فِعْلهم ما لهم عند ربهم مـن النكال. وفي هذا أوضح البيـان على تكذيب الـزاعمين أن الله فوض(٧٦) الأمور إلى خلقه في أعمالهم، فلا صنع له في أفعالهم، وأنه قد سوّى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلـون إلى الطاعة والمعصيـة، لأن ذلك لو كـان كما قالـوا لكان قد زيّـن لأنبيائه وأوليائه مـن الضلالة والكفر نظير مـا زيّن من ذلك لأعـدائه وأهل الكفر به، وزيّـن لأهل الكفر به من الإيمان به نظير الذي زيّن منه لأنبيـائه وأوليائه. وفي إخباره جلّ ثناؤه أنه زيّن لكل عامـل منهم عمله، ما ينبىء عـن تزيين الكفر والفسوق والعصيـان. وخصّ أعداءه وأهل الكفر بتزيين الكفر لهم والفسوق والعصيان وكرّه إليهم الإيمان به والطاعة.

تأثر الطبري بالإسرائيليـات ونقل كثيرا منها(٧٧)، والناظـر في تفسيره يستطيع أن يتتبـع مواضع القصص والأخبار، ويتعرّفها من طريقة روايتها برفع أسانيدها، أو حذفها ممّا يوهم بأنها حقيقة مسلّم بها، أو يعرفها من طبيعة الخبر نفسه ومضمونه.

والحق أن المرويّات الإسرائيليات تسلّلـت إلى التفسير بالمأثور فحفلت كتبـه بها، وكثرت كثرة بالغة. يقول السيوطي: «ثم ألّف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى، فدخل من هنا الدخيل، والْتَبس الصحيح بالعليل. ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ثم ينقل ذلـك عنه من يجيء بعده، ظانًّا أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يُرجع إليهم في التفسير(٧٨)».

ولعل ما ورد في تفسير الطبري من الإسرائيليات مردّه إلى اتسـاع معارفه التاريخية، يقول الأستاذ محمـود شاكـر «ولما رأيت أن كثيراً من العلماء كـان يعيب على الطبري أنـه حشد في كتابه كثيراً من الرّواية عن السالفين الذيـن قرؤوا الكتب وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الروايـة عن أهـل الكتابين السـالفين: التوراة والإنجيل ــ أحببتُ أن أكشـف عن طـريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات روايةً رواية، وأبيّن كيف أخطأ الناس في فهم مقصده، وأنه لم يجعل هذه الروايـات قطّ مهيمنةً على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطـل من بين يـديـه ولا من خلفه، وأحببتُ أن أبيّن عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها، وأنه إسناد لا تقوم

به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه، وأن استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم»(٧٩).

والحقيقة أن الطبري كان يذكر الخبر أحياناً خالياً من التنبيه إليه أو ممّا يدل على الشك فيه، وكان ينبه أحيانا إلى عدم قيمته وأهميته، فممّا جاء في تأويل قوله تعالى «فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى»(٨٠) قوله: «اختلف العلماء في البعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة وأيّ عضوٍ كان ذلك منها . . . والصواب من القول في تأويل قوله عندنا «فقلنا اضربوه ببعضها» أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية ولا خبر تقوم به حجة على أيّ أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به . . . ولا يضرّ الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله»(٨١).

ومما جاء في تأويل قوله «وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله» (٨٢) قوله: «وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله»(٨٣).

ومما جاء في تأويل قوله «والجان خلقناه من قبلُ من نار السَّموم» (٨٤) ما رواه بسنده عن وهب بن منبه وقد سئل عن الجن ما هم وهل يأكلون أو يشربون أو يموتون أو يتناكحون؟ قال هم أجناس، فأمّا خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالي والغول وأشباه ذلك»!!(٨٥).

هذا هو الطبري في قضايا التفسير الرئيسية، وهذا موقفه منها مدّعماً بأمثلة وأنموذجات تطبيقية من تفسيره، وهذا منهجه في التفسير: منهج يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن، وعلى تفسير الآيات بالأحاديث، مع حرص شديد على إيراد الأسانيد وطرق الرواية مهما اختلفت، وعلى ما روي عن الصحابة والتابعين من الأقوال، مع المفاضلة بين هذه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، حتى صحّ أن نعد تفسير الطبري من هذه الزاوية الانطلاقة الأولى لما وُضع بعده من التفاسير بالرأي.

إنه يبدأ بذكر السورة باسمها (السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها

النساء . .) وذِكْر بقية أسمائها إن وُجدت، ثم يتنـاولها آية آية، ذاكراً الأقوال المختلفة فيها، وما ورد فيهـا من أحاديث. مـرجّحاً ومختاراً لما يـراه الصواب، ذاكراً أسباب النـزول، معلّقاً ببعض التعليقات اللغوية، مستشهدا بالشواهد الشعرية.

وحسبنا أن نعيد مـا أجمع عليه علماء التفسير من أنه لم يكن لمفسر ممّن جاء بعد الطبري غُنْيةٌ عن الاستعانة بتفسيره والرجوع إليه.

● ● ●

الحواشي

(١) ترجمته في مراجع كثيرة منها: طبقات الحفّاظ ٣٠٧، وطبقات المفسرين ٢ : ١٠٦ ووفيات الأعيان ٤ : ١٩١ ومعجم الأدباء ١٨ : ٤٠، وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٢، وانظر الأعلام ٦ : ٦٩.

(٢) قيـل في تفضيلـه أقـوال منهـا قـول الإمـام المحـدّث ابـن خـزيمـة (تـاريـخ بغداد ٢ : ١٦٤):

نظرتُ فيـه من أوله إلى آخـره فما أعلم على أديم الأرض أعلم مـن ابن جريـر. وقول الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ٢ : ١٦٣): جمع من العلـوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهـل عصره. وقول ابـن تيمية (مجموع الفتـاوى ١٣ : ٣٦١) وتفسير ابن جـرير الطبري هو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا.

(٣) لخص ياقـوت علومه ومعـارفه بقوله (معجـم الأدباء ١٨ : ٤١): «كان قـد جمع من العلوم ما لم يشـاركه فيه أحد من أهـل عصره، وكان حافظاً لكتـاب الله عز وجل، عارفاً بالقرآن بصيراً بـالمعاني فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنـن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخهـا، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومـن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بـأيام الناس وأخبارهم» وأَتْبع ذلـك بثَبْت آثـاره ومصنّفاتـه، وأشهرهـا تفسيره: جامـع البيان في تفسير القرآن، وتاريخه: تاريخ الأمم والملوك

(٤) الاتجاهات الفكرية في التفسير ١٦١ .

(٥) انظر جامع البيان ١ : ٢٥ وما بعدها .

(٦) النحل ١٦ : ٤٤ .

(٧) النحل ١٦ : ٦٤ .

(٨) جامع البيان ١ : ٢٦ .

(٩) الأعراف ٧ : ١٨٧ .

(١٠) جامع البيان ١ : ٢٦ .

(١١) البقرة ٢ : ١١ ـ ١٢ .

(١٢) جامع البيان ١ : ٢٦ .

(١٣) مادة (تفسير) في دائرة المعارف الإسلامية ، نقلاً عن : الاتجاهات الفكرية في التفسير ١٦٦ .

(١٤) الدخان ٤٤ : ١٠ ـ ١١ .

(١٥) انظر جامع البيان ٢٥ : ٦٦ وما بعدها .

(١٦) المرجع نفسه ٢٥ : ٦٨ .

(١٧) الدخان ٤٤ : ٨ ـ ٩ .

(١٨) جامع البيان ٢٥ : ٦٨ .

(١٩) المرجع نفسه ١ : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢٠) الأعراف : ٧ : ٣٣ ، وانظر جامع البيان ١ : ٢٧ .

(٢١) قام الأستاذان أحمد شاكر ومحمود شاكر بتخريج أحاديث الأجزاء التي حقّقاها من تفسير الطبري ، ودلاّ على نوع كُلٍّ منها ودرجته من الصحة والضعف .

(٢٢) البقرة ٢ : ٤٨

(٢٣) جامع البيان ١ : ٢١٢ ، وانظر الطبري ١٣٤ .

(٢٤) انظر تعليقة محقّقَيْ تفسير الطبري في طبعتها ٢ : ٣٤ .

(٢٥) انظر : علوم الحديث ومصطلحه ١٦٨ .

(٢٦) الأنعام ٦ : ٨٢ .

(٢٧) لقمان ٣١ : ١٣ .

(٢٨) حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما، انظر حاشية تفسير الطبري (طبعة شاكر) ١١ : ٤٩٤ والنص من جامع البيان ٧ : ١٦٨.

(٢٩) ثبت ذلك لديّ في مقارنة شواهد عدد من التفاسير كتفسير الطبري: جامع البيان، وتفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، وتفسير الزمخشري: الكشاف وتفسيري أبي حيان: البحر المحيط والنهر المادّ، أثناء اشتغالي في تحقيق النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

(٣٠) الذاريات ٥١ : ٣٧_٣٨.

(١٣) الكشاف ٤ : ١٩.

(٣٢) مريم ١٩ : ١٣، وانظر جامع البيان ١٦ : ٤٣_٤٤.

(٣٣) الروم ٣٠ : ٢٧، وانظر جامع البيان ٢١ : ٢٤.

(٣٤) يوسف ١٢ : ٢.

(٣٥) جامع البيان ١ : ٦.

(٣٦) الحديد ٥٧ : ٢٨.

(٣٧) سبأ ٣٤ : ١٠.

(٣٨) المدثّر ٧٤ : ٥٠_٥١.

(٣٩) المزّمّل ٧٣ : ٦.

(٤٠) جامع البيان ١ : ٧.

(٤١) المرجع والصفحة نفسها.

(٤٢) العاديات ١٠٠ : ٨.

(٤٣) البقرة ٢ : ١٨٠.

(٤٤) انظر جامع البيان ٣٠ : ١٨٠ وساق الطبري على تسمية المال بالخير قول ابن زيد (٣٠ _ ١٨١): «وعسى أن يكون _ أي المال _ حراماً، ولكن الناس يعدّونه خيراً فسمّاه الله خيراً، لأن الناس يسمّونه خيرا في الدنيا وعسى أن يكون خبيثاً. وسمّى القتال في سبيل الله سوءاً وقرأ قول الله «فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء» (آل عمران ٣ : ١٧٤) قال: لم يمسسهم قتال. قال: وليس هو عند الله بسوء ولكن يسمّونه سوءاً».

(٤٥) العاديات ١٠٠ : ١

(٤٦) جامع البيان ٣٠ : ١٧٧ في الموضعين.

(٤٧) طه ٢٠ : ١٥.

(٤٨) جامع البيان ١٦ : ١١٤ وما بعدها. وانظر أيضا الاتجاهات الفكرية في التفسير ١٧٧ـ١٨١.

(٤٩) العاديات ١٠٠ : ٦ـ٨

(٥٠) إبراهيم ١٤ : ١٨.

(٥١) جامع البيان ٣٠ : ١٨٠.

(٥٢) المرجع نفسه ٣٠ : ١٨١.

(٥٣) معجم الأدباء ١٨ : ٤٥.

(٥٤) انظر المرجع السابق ٤٥ وما بعدها.

(٥٥) البقرة ٢ : ٥١.

(٥٦) إبراهيم ١٤ : ٢٢.

(٥٧) الأنفال ٨ : ٧.

(٥٨) جامع البيان ١ : ٢٢١، وانظر: الاتجاهات الفكرية في التفسير ١٧٣.

(٥٩) الإسراء ١٧ : ٢.

(٦٠) جامع البيان ١٥ : ١٥.

(٦١) الكهف ١٨ : ٩٤.

(٦٢) جامع البيان ١٦ : ١٤.

(٦٣) طه ٢٠ : ١٥.

(٦٤) جامع البيان ١٦ : ١١٤ وانظر في بقية النص كيف يربط بين القراءة التي ارتضاها وبيم توجيه معهنى «أكاد أخفيها» إلى معنى: أكاد أخفيها من نفسي، إلى معنى: أكاد أخفيها من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أكاد أظهرها.

(٦٥) النساء ٤ : ١٣٧.

(٦٦) انظر جامع البيان ٥ : ٢١٠.

(٦٧) النساء ٤ : ١٣٦.

(٦٨) جامع البيان ٥ : ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٦٩) يقال : انتزع معنى آيـة من كتاب الله ، إذا استنبطه واستخرجه . انظـر حاشية تفسير الطبري (طبعة شاكر) ٩ : ٣١٧ .

(٧٠) في طبعة بـولاق ٥ : ٢١١ : نذكر مـن قال : يستتاب ثلاثـا ، والتصويب مـن طبعة شاكر ٩ : ٣١٨ .

(٧١) المرجع والصفحة نفسها ٥ : ٢١١ وينظر على الاستدلالات الفقهية أمثلة أُخر مثل ما جاء في تأويل قوله تعالى « «ومن دخله كان آمناً» (آل عمران ٣ : ٩٧) ٧ : ٢٩ (طبعة شاكر) .

(٧٢) النساء ٤ : ٤٨ .

(٧٣) الزمر ٣٩ ـ ٥٣ .

(٧٤) جامع البيان ٥ : ٨٠ .

(٧٥) الأنعام ٦ : ١٢٢ .

(٧٦) التفويض هو زعم القـدرية والمعتزلة والإمامية من أهل الفـرق أن الأمر قد فُوّض إلى العبد ، فـإرادته كـافية في إيجاد فِعْلـه طاعـةً كان أو معصيـةً ، وهو خـالق أفعـاله ، والاختيار ، ينفون أن تكـون أفعال العباد من خلق الله . انظـر حاشية تفسير الطبري (طبعة شـاكر) ١٢ : ٩٢ . وانظـر أيضاً في المسـائل الكلاميـة ، الردّ على القـدرية في قولهم إنّ إزاعة الله قلب العبد جَـوْرٌ منه ـــ سبحانه وتعالى عن ذلك ـــ في تأويل قوله ربنا لا تُزِغْ قلـوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنـا من لدنك رحمةً إنك أنـت الوهاب» (آل عمران ٣ : ٨) ٦ : ٢١٢ ـ ٢١٣ مـن الطبعة الآنفة الذكر ، وكذلـك الرّد مفصّلاً على المعتزلة في رؤية ربنا سبحانه يوم القيامة في تأويل قوله «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصـار وهـو اللطيـف الخبير» (الأنعـام ٦ : ١٠٣) ١٢ : ١٣ ـــ ٢٢ مـن الطبعـة المذكورة .

(٧٧) نفى بعـض المستشرقين تأثر الطبري بـالإسرائيليات ، وعلّـق الأستاذ أمين الخولي في دائرة المعـارف الإسـلامية على هـذا النفـي ، وأثبـت ذاك التـأثر. انظـر في ذلـك : الاتجاهات الفكرية في التفسير ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٧٨) الإتقان في علوم القرآن ٢ : ١٩ وانظر أيضاً : الاتجاهات الفكرية في التفسير ١٦٣ .

(٧٩) انظر تفسير الطبري (طبعة شاكر) ١ : ١٦ ـ ١٧ وانظر كذلك : لمحات في علوم القرآن ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٨٠) البقرة ٢ : ٧٣ .

(٨١) جامع البيان ١ : ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٨٢) آل عمران ٣ : ٤٩ .

(٨٣) جامع البيان ٥ : ١٩٢ .

(٨٤) الحجر ١٥ : ٢٧ .

(٨٥) جامع البيان ١٤ : ٢١ ، وانظر في الأمثلة المتقدمة وغيرها : الاتجاهات الفكرية في التفسير. وانظر نماذج أخرى في قصة الجارية التي قيل إنها لا تموت حتى تبغي (من البِغاء) بمئة ، ويتزوجها أجيرها ، ويكون موتها بالعنكبوت ، ذلك في سياق تأويل قوله تعالى «أينما تكونوا يدرككُـم الموت ولو كنتم في بروج مُشيَّدة» (النساء ٤ : ٧٨) ، ٨ : ٥٥٢ (طبعة شاكر) . وانظر كذلك تأويل قوله تعالى «قال عيسى بن مريم اللّهم ربَّنا أنزِلْ علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزُقْنا وأنت خير الرازقين» (المائدة ٥ : ١١٤) والآثار والأخبار المروية في ذلك وأكثرها أخبار موقوفة أو مرفوعة ، وتعليقات محقق تفسير الطبري عليها ١١ : ٢٢٤ — ٢٣٢ (طبعة شاكر)

مراجع

- الاتجاهات الفكرية في التفسير ــ الدكتور الشحات السيد زغلول ــ الإسكندرية ١٩٧٥م .
- الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ القاهرة ١٣٦٨هـ
- أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ـ الدكتور مساعد مسلم آل جعفر ـ بيروت ١٩٨٤م .
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ـ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ــ القاهرة ١٩٧٣م .
- الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ بيروت ١٩٧٩م .

- بحوث في أصول التفسير ـ الدكتور محمد بن لطفي الصباغ ـ بيروت ١٩٨٨م.
- تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ـ القاهرة ١٩٣١م.
- تفسير الطبري ـ أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٩٥٧ , ١٩٧٢م.
- جامع البيان في تفسير القرآن ـ الطبري ـ القاهرة ١٣٢٣هـ.
- دراسات في التفسير وأصوله ـ الدكتور محيي الدين بلتاجي ـ بيروت ١٩٨٧م.
- الطبري ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي ـ القاهرة ١٩٦٣م.
- طبقات الحفّاظ للسيوطي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ القاهرة ١٩٧٣م.
- طبقات المفسرين للداودي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ القاهرة ١٩٧٢م.
- علوم الحديث ومصطلحه ـ الدكتور صبحي الصالح ـ بيروت ١٩٧٨م.
- الكشاف ـ الزمخشري (نسخة مصورة) بيروت.
- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ـ محمد الصباغ ـ بيروت ١٩٧٣م.
- مجموع الفتاوي ـ ابن تيمية ـ الرياض ١٣٨١هـ.
- مذاهب التفسير الإسلامي لجولدزيهر ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ القاهرة ١٩٥٥م.
- معجم الأدباء لياقوت ـ نشر مرجليوث ـ القاهرة.
- مناهج المفسرين ـ الدكتور مساعد مسلم آل جعفر ومحيي هلال السرحان، بغداد ١٩٨٠م.
- وفيات الأعيان لابن خلكان ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٨م.